شرح وتحقيق مخطوطة

((انجلاء ليل الاستبداد الدامس في جلوس السلطان محمد الخامس))

للمؤلف

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الخطيب

١٢٧٨-١٣٥٩هـ

١٨٦٠-١٩٤٠م

تحقيق وتقديم

حكمت هلال

شرح وتحقيق مخطوطة

((انجلاء ليل الاستبداد الدامس في جلوس السلطان محمد الخامس))

للمؤلف

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الخطيب

١٢٧٨–١٣٥٩هـ

١٨٦٠–١٩٤٠م

تحقيق وتقديم

حكمت هلال

مؤلف الكتاب:

هو العلامة الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الخطيب، مربي أبناء السلاطين في بني عثمان وأحفادهم، مسند الشام ومحدثها الكبير، إمام المدارس الحربية في استنبول.

ولد المؤلف في بلاد الشام سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦٠م، ونشأ في كنف أبيه الرجل الصالح الشيخ أحمد، وأخذ العلوم عن علماء الأسرة وشيوخ عصره، أخذ الحديث عن الشيخ بكري العطار، والشيخ عبد الرحمن الكزبري، وأخذ الفقه الحنفي عن مفتي الشام الشيخ عطاء الله الكسم الدمشقي، وألمّ ببعض الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية

والنقشبندية* عن مشائخه:محمد جمال الدين القاوقجي، والشيخ يوسف النبهاني، والسيد محمد بن جعفر الكتاني، وكان حنفي المذهب صوفي المشرب.

كان إمام طابور في الجيش التركي، وعيّن إماما في المدرسة الحربية المدفعية، ومحافظاً على مكتبتها ومتحفها إلى زمن احتلال الحلفاء، وحين نفذت سياسة التتريك وإبعاد العرب عن تركيا، عاد إلى وطنه دمشق الشام، بعد أن غاب عنها أربعين سنة، فقدم إليها في آخر حياته، وتوفي فيها سنة ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وكان ضخم الجثة رحمه الله تعالى، وصُلِّي عليه في الجامع الأموي، وخرج أهل دمشق بجنازته مودعين عالمها الكبير ببكاء مرّ أليم، ودفن في تربة باب الصغير.

كان له بيت تناثرت في باحته شتى أنواع الزهور والورود، ونبتت في أطرافها مختلف أنواع الأشجار التي اشتهرت بها دمشق، وفيه قاعات كبيرة، زينت جدرانها وسقوفها بأجمل النقوش والخشب المطعّم بالصدف، كما هو معهود في البيوت الدمشقية.

له بعض المؤلفات المحفوظة لدى أولاد أخيه الشيخ صالح الخطيب، ومنها كتاب ((انجلاء ليل الاستبداد الدامس في جلوس السلطان محمد الخامس)) الذي نحن الآن بصدد تحقيقه وشرحه ونشره اعتماداًعلى مخطوطته التي سنتكلم عنها.

---

* القادرية: نسبة للشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني(٤٧٠-٥٦١ هـ /١٠٧٧-١١٦٥) واعظ وصوفي،ألف عدة كتب فيها أحزاب سماها الصلوات الصغرى والوسطى والكبرى.

الشاذلية: وهي من أشهر الطرق الصوفية المعروفة في العالم الإسلامي،وفي بلاد مصر بصورة خاصة. أسس هذه الطريقة علي بن عبد الله بن الجبار (٥٩٣-٦٥٦هـ/١١٩٦-١٢٥٨ م) أصله من ريف المغرب الأقصى، وكان معروفاً بالشاذلي نسبة إلى شاذلة،وهي قرية قرب مدينة تونس.

النقشبندية: نشأت في أواسط آسيا، وامتدت شرقاً حتى بلغت الصين، وهي التي أوقدت نار الثورة ضد الاستعمار الأجنبي في جزر الهند الشرق

عصر المؤلف:

عاصر المؤلف الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الخطيب السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٩–١٣٢٨هـ /١٨٤٣–١٩٠٩م) والسلطان محمد رشاد الخامس (١٢٦٠–١٣٣٧هـ /١٨٤٤–١٩١٨م) وهما متناقضان تماماً في الحكم، فالأول عُرف بالتسلط والاستبداد، والثاني اشتُهر بالعدل والرشاد.

اجتمع المجلس العمومي اجتماعاً سرياً، وخلع عبد الحميد بموجب فتوى من شيخ الإسلام سنة (١٣٢٧ه/١٩٠٩م) وبايع الخليفة الشوريّ العادل محمد رشاد الخامس بالخلافة.

غير أن عبد الحميد الذي طُبع على الاستبداد لم يَرُقهُ أن يرى أمته متمتعة بالحرية،منظمة أمورها بنفسها بالعدل والمساواة، فسوّلت له نفسه إحداث تلك الفتنة الارتجاعية لتقويض صروح الإدارة الدستورية، حينئذ قرر جيش الحرية أن يقوم بالمهمة الأخيرة فأطلقت القنابل على حامية الباب العالي والنادي العسكري،وتم الاستيلاء عليهما، وتم القبض على الكثيرين من أنصار الحكم القديم الذين أثاروا الفتن، وأعدم الجواسيس رمياً بالرصاص، وبذلك قُضي على آخر أمل بعودة الحكم البائد.

وفي عام (١٣٢٨ه–١٩٠٩م) أرسل عبد الحميد مع نسائه وأولاده وبعض المرافقين والخدم إلى سالمونيك، وبقي هناك تحت حراسة الاتحاديين حتى حرب البلقان، إذ جرى نقله إلى أحد القصور في استنبول، بعد وساطة الإمبراطور الألماني (ولهلم الثاني) حيث توفي هناك.

مخطوطة الكتاب:

تتكون المخطوطة من خمس عشرة صفحة، بقياس (١٢×١٨) بمعدل عشرين سطراً في الصفحة الواحدة، وقد تقلّ السطور عن ذلك قليلاً أو تزيد، وعدد كلمات السطر

الواحد بمعدل عشر كلمات تزيد أو تنقص قليلاً، وقد كتبت بخط متوسط الوضوح وقد تصعب القراءة بسبب الشطب وبعض التعديلات، وتكملة الفقرات على هامش الصفحات بحيث تستوجب الحذر الشديد من الوقوع في الخلل والاضطراب.

أهمية المخطوطة وأسلوبها:

تنحصر أهمية المخطوطة في أنها كُتبت بقلم شاهد عيان عاصر الأحداث، وعاشها، واكتوى بنارها، وهو يعدُ من رجالات الحكم، ومن ذوي المراتب العالية فيه، وبحكم منصبه الكبير اطّلع على أدقّ تفاصيل الأحداث وأسرارها، فهو إمام المدارس الحربية فيها، ومربي أبناء السلاطين والحكام، ويعلم كل شاردة وواردة، وما خفي وما بان من الأمور المتعلقة بالسياسة والحكم والأوضاع الاجتماعية السائدة.

كتب المؤلف كتابه بالأسلوب المسجع، الذي يعتمد التوازن والازدواج وتشابه نهايات الفقرات، وهو الأسلوب السائد في عصره، والمقبول لدى أوساط الخاصة والعامة، بالإضافة إلى ما حفل به من أصناف البيان وألوان البديع، الأمر الذي أضفى على الكتاب رونقاً وبهاء، وهو القائل:((وقد بدا في الخطبة من أنواع الفن البديعي، ما يفوق لطافة على الزهر الربيعي))، ولم يكن الأسلوب المسجع ليمنع من وضوح العبارة، وسهولة الإشارة، وبساطة التركيب، الأمر الذي جعل من الكتاب أثراً فنياً، وتراثاً قيماً، وعملاً باقياً عبر العصور.

هذا كتاب انجلاء ليل الاستبداد

الدامس، في جلوس السلطان

محمد الخامس، المشتمل على

إيضاح سعادة الأمة العثمانية

المغبوطة، في بيان

فضائل الحكومة

المشروطة،

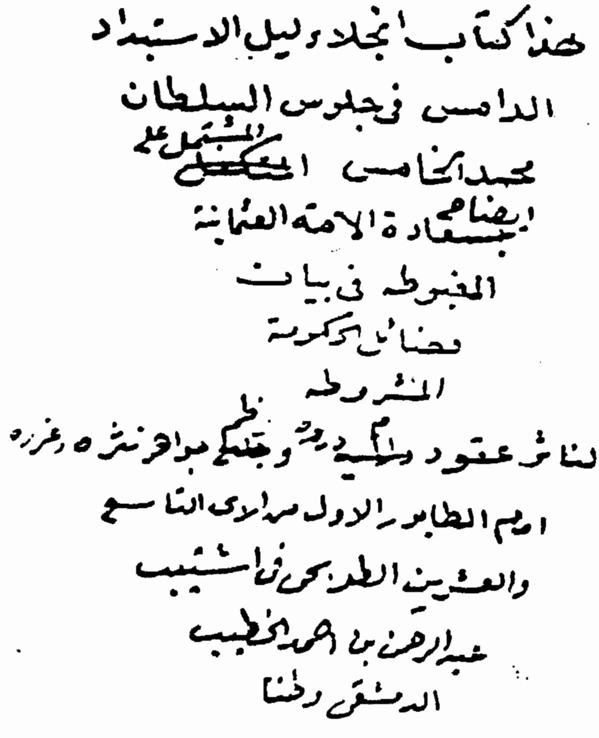
لناثر عقود دُرَره، وناظم جواهر نثره وغُرره،

إمام الطابور(١) الأول من آلاي (٢) التاسع والعشرين،

الطوبجي (٣) في أشتيب،

عبد الرحمن بن أحمد الخطيب،

الدمشقي وطناً.



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي رضي الإرشاد للمؤمنين إماما، وجاد
(المؤمنون) من [illegible] الهدى وشيد لهم أساما، وأعلى المتقون بالسلطان آيات وأياما
فسبحان من أتى بملك حميد... خليق وخص كل ذي سلطان بعدل يحيه
والصدق بأنفس المسلمين إرغاما، وقمع شنشنة أبطال الرقي شرذمة الإلحاد
وقطع عناصرهم بصوارم انتضاها حجب الاتحاد، وأباد بعدله أشرارا
كانوا لطغاما، وتدارك إرهاق فحل قراءة، وأحيى الرعية كي يعدما [illegible]
وأشاد دستور العدل شيدا وإرغاما، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، مؤيد كل يأس شيد دينه وأعز جنده، ونصر حزبا لحرية
الرقي قاموا [illegible] واحتراما، وأعلنت أعلام الارتقاء بكيانه، ومزق هيكل
ستر الحكم والاستبداد، وأذاق شياطينه بعد رغبة إيغاما، وأشهد
أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله المصطفى الذي أظهر الحق المبين
بحججنا، وأنار بهدي دينه وكشف الظلاما، وحث بالعقول
والعدل على الاستقامة، وبين فضلها [illegible]، وردع
مستغلون الرأي [illegible] واستظلاما [illegible]
[illegible] شورى [illegible] اشتباه
الحرية [illegible] ورعاية لشؤون حال خليقته [illegible] وطله

ونعم اكرم واكرمه اذ البارئ تعالى عند انشائه لا يحص الطائف ولا يتأمر
لدى الاضطرار اسماؤه ولا يمنع عطاه واتحافه لكل من التجا اليه من
المخلوقين فكم من حرج دفعه عنا بعنايته الخفيه وكم من ضيق فرجه
بوصف الطافه الخفيه على ان وعد اذا اتفق القوم وحسنت فيما بينهم
البنيه لا يضاموا وكذلك جزا الحسنه ويتقنوا اخواني بانه
لا عجز بعد اتفاق ولا ضعف مع الوفاق ولا خطر اذا اتحد الرفاق
عسى ان نكون جميعا من المهتدين فاتحدوا مع ابناء الوطن واخلصوا
له فيما ظهر وما بطن يقيكم البارى شر الفتن لمحافظتكم على حقوقكم
ومنافعكم عن بلادكم حسب الشرع المتين فاطيعوا امرائكم ولا
تخالفوا كبرائكم واتركوا المنافع الشخصية وراءكم وقوموا بعزم
وحزم لحماية الوطن وصيانة الدين المبين فالمشروطية هي اساس
العمران ونورها في الآفاق غلب على القرآن فاجتهدوا جميعا
معا بالاتحاد والاقتران كي تتخلصوا من كيد الاشرار المفسدين
فقد اخرج ابن ماجة عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه عن النبي
صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال ان امتي لن تجتمع على ضلالة فاذا رايتم
اختلافا فعليكم بالسواد الاعظم انتهى ثم ترادفت الاخبار
باعصار من مرور جيش الحرية على القرى والامصار بلا منازعة ولا
ولا ممانعة ولا مقاومة ولا معارضة بل كانوا يقابلون بالاحترام والتعظيم
والتبجيل والتكريم كيف لا وهم المدافعون عن حرية الاوطان الباذلون
ارواحهم لترقي الدولة وعمران البلدان وقطع عروق الفساد واعصاب
ووضع الامر في نصابه فنحن نعتقد هذا الجيش المدافع هو الذي امن الناس
في المضاجع.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نصب الرشاد للمؤمنين إماماً، وقاد الموقنين بالهدى وسيّرهم إماماً، وأفلح المتقون من كانوا وأيامَى،فسبحانه من إلهٍ ملك حميد،خلع كل ذي سلطانٍ عن الحق يحيد، وألصق بأنف المستبدين رَغاماً(٤)، وقمع بسنان أبطال الترقي شرذمة الالتحاد، وقطع عناصرهم بصوارم أنصار الاتحاد، وأباد بعدله أشراراً كانوا طَغاماً(٥)، وتدارك أمر الخلق قبل فواته، وأحيا طريق الحق بعد مماته وأعاد دستور العدل جبراً وإرغاماً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا مشير عنده، مولىً كريماً شيَّد دينه وأعزَّ جنده، ونصر حزبَ الحرية والترقي قاموا احتراماً، وأهلك أهل الارتجاع والخيانة، ومن هتك ستر الدين والديار، وأذاق شياطينَ الغدر عذاباً غراماً(٦). أشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله المصطفى، الذي أظهر الحق المبين بعد الخَفا، وأنار الهدى، وبنوره انكشف الظلام، وحثَّ بالقول والفعل على الاستشارة، وبيّن فضلها باللفظ والإشارة، وردع المستقلين بالرأي تحسيناً وانتظاماً، وردَّ الأمر من عنده مسطوراً منشوراً،مع مدح قوم كان أمرهم شورى، وأرسل الله نبيَّه اعتناءً بالبرية واهتماماً، ورعاية لشؤون حال خليقته، ومعونة لنائبه و ظلّه وخليفته، وإرشاداً لأمته الحرة واغتناماً، توخياً لإظهار مكنون الحق المبين، وتكميلاً لشرف أمة هذا النبي الأمين. اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ما برح مُلكُ أمته دواماً.

أما بعد فيقول مملوءُ الذنُوب(٧) ذنوباً، وطافح الوِطاب (٨) عيوباً،المجترح آثاماً حراماً، الراجي من ربه الحفظ من كل ما يُشقي، عبد الرحمن بن أحمد الخطيب الدمشقي، بوَّأه اللهُ ووالديه في الجنان ما أراد ورام، وأعطاه الكريم مولاه، ومن عظيم جوده أولاه، وبلَّغه والمسلمين أقصى المرام، إن العيون –وايم الله –وما يحق لها تبكي، والقلوب دوماً تجأر إلى الله وتشكي (٩) لما أن حلَّت بالملّة الإسلامية الحوادثُ

العظام، من الشدائد العظيمة الملمّة، والبلايا الوخيمة المهمّة، والكوارث التي أوهَت للأمة العثمانية العظام، مع فحش ظُلم الظَّلَمة، وتفريق جمع الكلمة، بعد أن كان لها قوة والتئام، حتى عمَّ القهر والبَلا، وكادت أن تلبس الدولة ُ ثوب َ البِلى، على الأخص عند حادثة المستبدين اللئام،بجلبهم الويلات الطويلة، وبيات الناس الليالي الأليلة (١٠)، لأنهم حسروا عن أوجه الفتن اللثاما، وأرعدوا وأزبدوا، وأغوروا في التعدي وأنجدوا(١١)، واقترفوا عظائم فيها وآثاماً، وخبطوا خَبطَ عَشواَءَ لمَّا جَهِلُوا، وركبوا منه عمياء فيما فعلوا، كما تغاضى كبيرهم وعن طرق السداد تعامى، فلذا عندما خرجوا، هرجوا ومرجوا، وصار بلاؤهم عامّاً، فزجرهم أهلُ النُّهى ووعظوهم، ونبَّههم أرباب الحِجَا وأيقظوهم، وما فاد فيهم للناصحين كلام، بل زادوا ضلالاً واحتلالاً، وأطبقوا جنوناً واختلالاً، حتى صيَّروا قلوب العالمين كِلاماً (١٢)، وما انفكوا وما برحوا وداموا على ما اجترحوا (١٣).

إلى أن قيَّضَ الله أنصارا ًله هَبُّوا قياماً، فسامُوا أعداءهم خَسفاً، ونسفوا وجودهم نَسفاً، وانتقموا منهم وأيُّ انتقام، وأبادوهم واستبدادهم، ومَحَوهُم وعنادَهُم، لما حكَّموا فيهم حدَّ الحسام،وفازوا عليهم قوة ً واقتداراً،وأبدوا للملّة شأناً واعتباراً،وشيَّدوا للدولة قدراً تسامى، واجتهدوا في إعادة الأمن وجَدُّوا، ولراحة العموم مهَّدوا وأنجدوا.

ولكن رأوا مادام عبد الحميد إماماً، فيما أراد يُراعى، نافذ الأمر مُطاعاً، يتصرف بالملك كما شاء، بدا أنهم لدرجة الترقي ما استفادوا، ومهما جَدوًا وجادوا يبقى على وجه الصلاح قَتام (١٤)، فلذا انعقد بالحال مجلس الأمة، الحاوي الكرام المبعوثين والأعيان المهمة، فقرروا خلعه فوراً، ولم يستطيعوا للحقِّ انكتاماً، وقصدوا بهذا الفكر السديد الصائب، تخفيف ويلات المصائب، رجاءً أن يكون لدور المستبدين الختام، كما شدُّوا لأَزر الملك أركانه، وقرروا الرشاد ولي العهد مكانه، وبايعوا في ذاك اليوم محمد خان الخامس الهمام، وابتهجوا بهذا الإلهام جدّاً، كما هام به العمومُ وجداً.

وسرى عنهم همٌّ كبير واغتمام، وطَّيروا في ذلك الأخبار البرقية، للبلاد الغربية والشرقية، وعمَّ الهناءُ حجازاً وعراقاً، يمناً وشاماً وكانت بلاد الإسلام له بانتظار، يترقبونه بقلوب وأنظار، وكذا من بأقطار الترك المحاذية للشام،ولولا أن الله حَفَّهم بلطفه، لما قاموا بها ولا نِصفِه ولما ألزموا صَغاراً (١٥) للعُتاه القيام، وحينما كَفُّوا يدَ الجَور جَزماً، وقَصَموا ظهور أهله حزماً، وقَوَّضوا لأمره المخلوع الخيام، ومهَّدوا سبيل الراحة للرعايا،وأناموا على مهاد الأمن البرايا، وأجلسوا على عرش السلطنة خليفتنا الجديد أعلى مقام، وفازوا بالحق ونالوا انتصاراً وقصروا العِدا في الذل اقتصاراً، استكان الهياج والأمر استقام، وخمدت بالحال نيرانُ المحن، وسكنت بالوقت مثيرات الإِحَن (١٦)، وبدا للمملكة اتّساقٌ وانتظام، وانشرح المؤمنون بنيل الأماني، وسُرَّ بها كل عثماني، وسلك الناس نهجاً واحداً ونظاماً.

وبما أن ما أجملته يقتضي تفصيلاً ونشراً،فلذا تذكاراً أردتُ أن أسطِّرَ صما أحطتُ به خيراً وإلماماً، وقد سميتُه: انجلاء ليل الاستبداد الدامس، في جلوس السلطان محمد خان الخامس فأقول متكلاً على الله راجياً من فضله اعتصاماً ملتمساً قبول عذري جهد الاستطاعة، لاعترافي بتقديم مُزجاة البضاعة (١٧)، سائلاً التجارة بجاه أجل مَن صلّى وصام،وقد بدا في الخطبة من أنواع الفن البديعي، ما يفوق لطافةً على أشكال الزهر الربيعي، وانظر لثالث هوى القوافي، راجياً تُقىً بالمقصود تماماً، بما فيها التزاماً، وهذا أوان الشروع فيما أردته، وزمان إيضاح الوجه الذي قصدته، فأقول معتمداً على توفيق ربي، متضرعاً أن يكون لي لزاماً:إن من المعلوم عند أولي الأبصار، ولا يخفى على ذوي الاستبصار، أنه منذ إعلان الحرية، وقلب الحكومة الشبيهة بالمطلقة الدستورية، ظلت الآمال متعلقة، والقوب متشوّقة، لشمّ رائحة العدالة، والتمتع بتحسن الأمور والحالة، والأفكار مطمئنّة،والخواطر مستكنّة، تترقب الناس الفلاح، ولكن بفراغ الصبر وتترصدُ النجاح، على أفئدة أحرً من الجمر، وتتطاولت لاجتناء ثمرات

مانالت، واقتباس فوائد ما خاطرت لأجله وما بالت، أي: نفوذ المشروطية (١٨) بموجب القانون الأساسي، لنصطلح ونتخلص مما نقاسي.

نعم إنه قد اجتمع مجلس الكرام المبعوثين، بالرغم عن أنف المثلوثين (١٩) بخبث الإفساد، ورجس الاستبداد، وانعقد المجلس غيرما مرة وسقاهم من كؤوس الغيظ أمرَّه، ودارت مباحثة في موجبات تحسين المملكة، والدواعي الواقعية لها من التهلكة، وتذاكروا في ذلك وتحاوروا، وتفكروا فيه وتشاوروا، ودقَّقوا وحقَّقوا، ونَفَوْا وصدَّقوا، وتحرَّوا الصواب واستبانوا،وأَلْغَوْا ما خير فيه ولا فائدة، وكتبوا وحرروا، واتفقوا وقرروا، ما يُجدي البلاد نفعاً ويُحْمَدُ عاقبةً ووضعاً، من شدّ أركان السلطنة، ودَرْءِ مفاسد أهل الشَّيْطَنَة، ولوازم ترقي البلاد وعمرانها، ونجاح العباد على أقرانها،مما أدهش العقول وحيّر الألباب، وأدخل المسرّة على أفراد الشعب من كل باب.

ولكن يد التنفيذ مغلولة، وأجسام أهلها معلولة، لعدم التمكن، وحساب ما لم يكن، فصارت لياليهم تمضي بالأرق، لبقاء جلّ ما أسسوه حبراً على ورق، إلا شذراً أزالوه ونبذوه، وقليلاً مما نَفَّذوه، إلا أن هذا النَّذْرَ القليل، كان لا يعرف في الزمن الطويل، حتى إنه حارت فيه أرباب الحِجَى والعقول، وكثرت في مدحه الأقاويل و النقول، وسارت بسيرته الركبان، ونُشر مائة مرة في كل مكان، حتى استدفَّ الأمر (٢٠) وأصلى في قلوب المستبدين الجمر.

فثقلت وطأة ذلك على المستبدين، وكبر مقتاً على جماعة الضلال المفسدين، وأَبَوْا حبَّ العدل والتساوي، وأصروا على التَّقاوي، فأخذوا يُوغرون الصدور، ويقفون في سبيل كل قرار مصدور، ليتمكنوا من تغريرهم، ويحكموا أوامر شريرهم، في بثِّ الأضاليل ونشر المفاسد، والتحزب مع كل خائن أو حاسد، قد اجترح غواية الشيطان الرجيم، واستغضب الرحمن الرحيم، فما لبثوا أن انتحلوا فرقة غاوية، واشتملوا أباليس من أحطاب الهاوية، ما بين خبيثٍ زنيم، أو "همّازٍ مشّاءٍ بنميم"، رُبِّي على مهد الشقاق،

وغُذي بلبن النفاق، ونشأ على عدم الوفاق، وعاهد على تفريق شمل الرفاق، من ملابس الغيرة عار،ممن لا يخشى الفضيحة والعار، بل غاصَ في المعاصي وغار، بغير دين عليه يَغَار، وغلبوا بالزور والبهتان، بواسطة كل ماردٍ فتّان، يلعب بعقول الناس، أو أخنّاسٍ به وسواس وتبعهم الجاهل المغرور، أو المعتوه المحرور، كما وافقهم أهل الفجور، أو المطرود المهجور، ممن لم يصل إلى أرَبِه، أولا يعبأ الله به.

حتى إذا ما انضموا لمنافقي أساطينهم، واتبعوا همزات شياطينهم والذين عقدوا النية، على سلب الأمنية، وجرِّ الدَّواهي والرزايا، وجلب البلايا و الخزايا، و إيقاد نيران الشرور الشنيعة، وإيقاظ الفتن الفظيعة، لإتلاف أهل الفضل والفطن، وإضاعة رجال الوطن، لتضيع حقوقُ الملّة، و تتضعضع أركان الدولة، وتقع الأمة في الوقائع، وتصير الديار بلاقع،ترويجاً لأفكارهم الكاسدة، وتسهيلاً لأغراضهم الفاسدة،كيما يدوم نفوذهم حيًّا، ولوتُخرَّبُ له الدنيا.

وقرروا ذلك في دار الندوة والتعدي، وامتثلوا أوامر شيخهم المتحدّي، واعتمدوا على نقض عُرى الدين والإيمان، وعزموا على نكث العهود والأيمان، وبيع الدين النفيس، في معرض الدنيا الخسيس، فبئسما شروْا به،لأنهم باؤوا بسخط الله وغضبه.

ثم إنهم تركوا الناس في شغل بالٍ حَيَارى، سُكارى وماهم بسُكارى، لا علم لهم بفكرهم، ولا خبر عندهم بضررهم، حتى ولا أهل الحكومة، كلا ولا جمعية الاتحاد والترقي المعلومة، بل ولا رجالها الضباط من الخبّاط.

فما راع العمومَ إلا وقد هاش وحوشُ أولئك الأوباش، الذين اجتمعوا وتعادوا، وحرّضوا بعضهم وتنادوا، وبرروا لهم يوماً باسم الجامعة المحمدية، وفسُروا بطلب الشريعة الأحمدية، وهي كلمةُ حقٍّ أرادوا بها الباطل، ودعوةُ صدق مَوَّهُوا بها مشروعهم العاطل، ظناً بأن الجوَّ لهم خلا، ولا معارض لهم بين الملا، ولم يدروا بأنهم سحابة صيف، وفي الأنام مَنْ يَبْريهم بحدِّ السيف.

ثم قد كان خروجُهم، وعلى سلم البغي عروجُهم، في كل وقاحة وبلا مخافة، في أرجاء القسطنطينية دار الخلافة، كما أنه قد كان هياجُ هذا البركان، في السنة الآتي بيانها في التحرير، الموضحة أثناء هذا التحبير، في أوائل الربع الثاني من القرن الرابع عشر، نهار الثلاثاء لثلاث وعشرين من شهر ربيع الآخر، الموافي سلخ آذار، عليهم الذل ودائرة السوء أدار، المُفْضي بهم للإدبار، إذ بحثوا على حتفهم بظلفهم،وهو الأجدر بهم وبوصفهم، لكونهم خانُوا الله والرسول، فانعكس بهم الأمل و المسؤول، واستحقوا الشَّتم واللعن، والسَّبَّ والطعن، فاللهُ يجازيهم على سوء مخازيهم، التي ابتدروها بالشرور، صباح اليوم المذكور، فإنهم حشروا جنودهم، وحشدوا قرودَهم، وأهل الدساكر من أرباب الحانات، وسكان الخانات، مع مَن أَطْغَوْه من العساكر، الذين خرجوا كالبهائم، وسرحوا معهم مثل السوائم، بلا نظام ولا ارتباط، ولا أمراء ولا ضباط، وساقوهم لميداني ومعهد، أياصوفيا والسلطان أحمد، وهناك وقفوا، وهدّدوا وخوّفوا، وارتجفوا وأرجفوا، وهوّلوا و أوجفوا، وقتلوا بعض المبعوثين والنظّار، وأوعزوا للبعض بالتهديد والإنذار، وأرعدوا وأبرقوا،واجتمعوا وتفرقوا وتطاولوا على كل غيور صادق، وأزعجوا الناس بإطلاق رصاص البنادق.

وفريق قعرُ السعير منهم، انفرد بشدة الإيذاء عنهم، وقصدوا بعض الدوائر التي على محورها دائر قطب فلك الحكومة المشروطة، التي سعادة الشعب العثماني بها مربوطة، فهتكوا وفتكوا، ورمحوا وبَتَكُوا(٢١)،وقتلوا وحرّقوا، وجمعوا وفرّقوا، وأتوا بما تقشعرُ له الجلود، ويذوب له الجلمود،لما اتخذوه من العوامل،التي أسقطت فيها الحوامل، واهتزلها البليد، وشاب لهولها الوليد.

وما ولّى ذاك النهار وأقبل مساؤه،إلا وامتلأت قلوب الناس مَسَاءَة، والتزم الأكثر منازله، خائفاً من اشتداد النازلة، إلا أولئك الأوباش الغَثَرَة (٢٢)، والأوغاد اللئام الفجرة، مازالوا يقلقون راحة الأهالي، بإطلاق العيارات النارية على التوالي، في المرميات المدهشة للسامع،والواصف المزعجة للمسامع،الدافعة بأصوات كالرعد

العاصف،لإثارة يوم الهيجا،بالآلة المعروفة بالطبانجة (٢٣)، والمسدس اللوزر، وبندق الموزر (٢٤)، وربما أطلقوا ألوفاً بلمحة، ولكن بضجة وصيحة، كأن القيامة قامت، أو وحوش الأرض اجتمعت وهامت، وطَمَى بحرُ البلاء، بتنحية الصدر الأعظم وبعض الوكلاء، فضلاً عمَّن قُتل من الأجلاء الأكارم،وما انتُهك من المحارم، فلذا بات العالم في كدر عظيم، وخوف شديد جسيم،على الأخص لما فهموا أن المنادي،يعلن في كل نادي،بالعفو الحميدي الجائر عن كل جانٍ وغادر، أي: ما زالت عُصاة العساكر هائمة، وفي باحة أياصوفيا قائمة، فالدماء مهدورة، والمحاكم مقصورة، يعني: يُغتفر لمن أساء، أن يقتل من يشاء، فأُخذ من هذه الأدلَّة المنصوصة،أنَّ المراد إعدام أشخاص مخصوصة، بل ظهر ذلك للوجود، من تفوهات بعض أفراد الجنود،إذ للعالم قالوا، حينما صالوا وجالوا: أنتم لا تخافوا ولا تخشوا،بل خذوا ذوقكم وحظكم وتمشّوا، حيث لاشيء بالنسبة إليكم، فلا بأس ولا حرج عليكم،أي: نعم، افهم هذا النعم، أن مرامهم لقلوبهم العمية، قتل أرباب الغيرة والحمية، والهجوم على إدارات بعض المطابع، ودوائر أهم المجامع لسحق أهل الفضل الأعيان، كما اتضح ذلك للعيان، والحاصل في تلك الليلة الأمور فوضى، قد صار أكثر الناس منها مرضى.

فيا لها من ليلة ما أدهشها، وما أظلمها و أوحشها، لم يذق أكثر الأنام فيها طعم المنام، إذ وجلت لأجلها القلوب، وخيف على شمس الدولة من الغيوب، لأن أعمال هؤلاء الخونة، وأتباع الظلام العونة، قسموا الأهالي شطرين، وأقاموهم من الهلاك على شبرين، لأنه ربما تكون هذه البلية، سبباً للمداخلات الأجنبية، أو داعية لإيقاع دولتنا العظيمة، في المشكلات العويصة والدواهي الأليمة، أو موجبة لاحتلال شرف الهيئة العثمانية، وانحطاط قدر سلطتنا الإسلامية.

ثم إنه ثاني يوم حشرت أيضاً وحوش القرم، بقلوب عليها طمس، وعادوا لفعلتهم بالأمس، كالبهم المتحيرة، والحمر المستنفرة، وملؤوا الدنيا ضجيجاً، وصراخاً وعجيجاً، حتى لم يبق صاحب دار ولا خان ولا فندق إلا ومات رعباً من سماع

رصاص البندق،إلى أن غضب الله عليهم، وأرسل بلاءه إليهم فوراً ولم يمهلهم، كما لم يضيع المنكوبين ولم يهملهم، تصديقاً لقول خير الخلق: ((لا تزالُ طائفَةٌ مِنْ أُمَّتي ظاهِرين على الحقّ))، فقيَّضْ لهم على عجلة، منْ قربوا لكل متقهقر أجله، الأساورة (٢٥) حماة الدين، وكماة الموحدين، رجال المشروطية والعدل، وأنصار الحرية والفضل، أبطال جمعية الترقي والاتحاد، وقامعي من رجع عن الحق وحاد، وذلك أنهم لما عاث المرتجعون في الأرض بالفساد، وغلب فسقهم وعمّ وساد، طارت أخبارهم للجهات وأعلن ما أبدوه من الهنات.

فما شاع الخبر وذاع، وكاد أن يتصل بالأسماع، إلا وقام له الخلائق وقعدوا، وطاشت أحلامهم وارتعدوا، خوفاً على البلاد والرعية البرية، من أعمالهم البربرية، وأفعالهم المؤذية النمروذية، وأحوالهم العاطلة الجنكيزية، فاستفزت شعب الاتحاد والترقي الأمم، فقاموا جميعاً على قدم وساق بعلو الهمم، وجيّشوا الجيوش لإخماد ثورة تلك الوحوش. وكنت إذ ذاك اليوم المشيب، في بلدة أشتيب ، فاضطربت وجوه الناس لذلك وتكدرت، وخفقت قلوبهم وتفطرت، وتقطعت منهم الأوصاب، لشدة هول المصاب، وتخوفوا شؤم العواقب، وتفاقم المعاطب، وتزعزع أركان السلطنة والملك، ووقوع الأمة في أودية الهلك، وأخذت تتحرك في قلوبهم الأوجاع، من سوء أحوال أهل الارتجاع، واستعاذوا بالله من عملهم القحطاني، سيما لما سمعوا بالعفو السلطاني، عن رؤساء تلك الفئة الباغية، وزعماء هاتيك الشرذمة الطاغية، وأخذهم المقعد المقيم، وصاروا يتأوهون كالملذوع السقيم، حزناً مما حلّ في الشعب العثماني ووقع، وأسفاً من تيار الكدر الذي عليه اندفع.

وبرز يومئذ كل شهم غيور، ومَنْ سَمَتْ همته لمعالي الأمور، ما بين مِدْرَهٍ لبيب، ومصقع (٢٨) خطيب، بارع الإلقاء حسن التلقي، من رجال الاتحاد والترقي، وقاموا في عرض فسحة واسعة، ما بين دائرة الرّديف ودار الحكومة واقعة، ووقفوا تحت لواء الحرية الأبديّة، ليُعلنوا قبائح تلك الفرقة الرديّة، فاستصرخوا الأهالي فأجابوهم،

وبالحال وافوهم سريعاً ولَبَّوْهم، صغاراً وكباراً أصنافاً وتجاراً، وأمراء وأطرافاً، وعلماء وأشرافاً، وكان هذا الاستدعاء نهار الأربعاء، أي: ثاني أيام المرتجعة اللئام.

فلما اجتمعوا عموماً سويّة، إسلاماً وبلغاراً و موسوية،فأخبروهم بحادثة الأستانة وما جرى لرجال الدستورية من الخوف والإهانة، وأفادوهم مقصود فئة الضلالة، وما أتت به على المشروطية من الاستطالة، وأن مرادها تعزيز القوة المستبدة، وأن تُعيد لها الحال القديم وتستردّه، وإماتة الحرية بالمَرَّة، وإحياء الفردية الحميدية المُرَّة، فاستشاط القوم غيظاً، وغنظهم الأمر غنظاً وصاحوا بألسنة واحدة، وقلوب متحدة: ها نحن باستعداد، لإعادة واسترداد حقوقنا الوطنية، ولو تفنى قوانا المالية والبدنية، وحاشا ثم كلا، أن نقبل بِمَنْ يُعيد الآن الوكلا، ثم تفرقوا بعزم التحزب والتجمع، والأخذ بالوسائط والتذرع، لشد أركان الدستورية الشورية، ومقاومة تلك الفئة الشريرية.

وذهب القسم الأعظم لدائرة البريد، ليعلموا دار السلطنة بطلب الرعايا وما تريد، بواسطة الأسلاك البرقية، كما أن الهيئة العسكرية أَبَتْ قبول أدهم باشا لنظارة الحربية، ثم إن الجميع اتفقوا عموماً وخصوصاً، بنيته أحسنوا فيها خلوصاً، بأنهم إذا لم يسعفوا بما ليس عنه بُدّ، من تربية كل خائن ومستبد، ارتكب إثماً ووزراً، أوأشد لها أزراً، مع تنفيذ أحكام القانون الأساسي، وأحكام أمر الشورى وإثباتها كالجبال الرواسي، فنفوسُهم متوطنةٌ للزحف على دار السلطنة لردع أولئك الطّغام بالقوة، و الاستيعاض عنهم بأهل الفتوة، ومعاقبة كل من ثار، وتأييد المشروطية بما تأمن بعده العِثار (٢٩) مع خلع الخليفة إن أصر، وعلى عدم تأديب العصاة اقتصر، أي: بأن لم يؤاخذهم بالأصر (٣٠)، المخالف لما أعطاه له من الألِيَّة والإصر (٣١).

ثم كان الناس قد فهموا، واتضح لهم وعلموا، أن عموم الجحفل الثالث والثاني، قد استعدوا مع الأهالي بلا تواني، لاقتحام المصاعب والمهالك،ومقاومة كل من يمنع ذلك، حتى إن جيشاً جراراً، تنهزم العدا من وجهه فراراً، قد استعد وحضر، وبات

على أهبة السفر، وكذا الأمر لِهُنا قد ورد، أي: لاحتمال احتياج زيادة القوة على مَنْ مَرَد، فيقتضي جمع أفراد عسكر الرديف ومن أحبّ، وأن يكونوا جميعاً تحت الطلب.

ثم راح كل إنسان لشأنه وحاله، يعثر بأذيال اشتغال باله، من هذه الواقعة، والداهية الباقعة (٣٢)، سكران لا من خمرة، ملتهب القلب كمن به جمرة، بل إنما من جو الصفا الذي تعكر، وما بدر من لوثة العسكر، الذين جَارَوْا تلك العصاة، واختاروا معاضدة أولئك الأشرار القساة.الحاصل ما بَقَلَ (٣٣) وجه النهار، ولبست الشمس ثوب الاصفرار، إلا والكثير بصورة جدية، اكتتبوا تطوعاً في سلك الجندية، ولا ننسى هنا ما أبدته طائفة البلغار من الإنسانية،لأنهم بذلوا تمام الواجبات الوطنية،وتهافتوا على الاكتتاب بابتهاج، ولا تهافت الفراش على السراج، كما أن الطائفة الموسوية أفرغت جهدها، وقدّمت ما عندها.

كل هذا والناس خائفة، من تمادي سوء تلك الطائفة، المحفوفة بكل مائنٍ ومستبد وخائن، ولذا ماخفقت رايات الظلام، إلا وقلوبهم تخفق من أخبار أولئك الظُّلّام، وباتوا بالأفكار و الوساوس، مابين حزين ويائس.

ولما أن أشرقت شمس الخميس، وشاع في العالم خبر الخميس (٣٥)، الذي تجرّد من العسكر الماكِث، في الفيلق الثاني والثالث، مع منْ تطوع من الأهالي، من أرباب الغيرة والهمم العوالي، وأنه زحف نحو دار الخلافة، لمكافحة من يناوئ أو يمشي خِلافَه، فازداد خوف أهل الفطنة، من اشتعال نيران الفتنة، وسفك الدماء وسفحها على الأرض كالماء، وثارت قلوبهم وفارت، ومن أفعال المرتجعة عقولهم اشتعلت وحارت، وشرعوا ليشدوا للجيش الزاحف القِرى (٣٦)، يجمعون بسرعة أفراد الرديف من القصبة والقُرى، وتسليح الذين بقلوب رضية، أحبوا الدخول تطوعاً في سلك الجندية، من عموم التبعة العثمانية، حتى صاروا كالجمّ الغفير، واستعدوا لوقت النفير.

ثم ثاني اليوم الجمعة، أي الرابع ليوم الوقعة، قُمتُ مع ما بي من الونى، على منبر جامع قادين أنا، مع كوني لستُ من رجال هذه الحلبة، ولكن مع العجز ألقيت خطبة حسبَ الطِّلْبَة (٣٧)، فأوردها هنا وأقصها، وهذا نصها:

الحمد لله مُدبِّرِ الأكوان، العالم بما صار من شؤون الخلق وكان،فسبحانه من إله وعد من اتَّقاه بشد الأزر والأركان، كما قال في كتابه الجليل: ﴿واعلَمُوا أَنَّ الله مع المتَّقين﴾ [البقرة: ١٩٤]. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده اللطيف الخبير، شهادة تُنجينا غداً من حرِّ السعير، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله البشير النذير، المبعوث رحمة للعالمين، اللّهم صلِّ على سيدنا محمد عالي الرتب، صلاةً *تنحلُّ* بها العقد وتنفرج بها الكرب، وننجو بها من مهاوي الخطوب والعطب، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فيا عباد الله، أوصيكم إياي بتقوى الله، واعلموا أنَّ حادثة الأمس قد صدعت أفئدةَ العباد، وأضرمت نيران الفتن على غير ميعاد، وخشينا وقوع الخلاف بين شعوب هذه الأمة بعد الائتلاف والوداد، وأصبحنا حيارى من أفعال القوم الظالمين، أي: والله قد عظم الخطبُ وجلّ، وكاد من الأسف أن يقضي على حياة الجُلّ، فنسأل المولى تعالى عزّ وجلّ، أن يلطف بنا و يتعطف علينا، وهو أرحم الراحمين.

وبالجملة: وان كان المصاب كبيراً، ويجلب للبلاد والعباد ضرراً كثيراً، فلنتقِّ ربّاً بنا خبيراً، لعل الله أن ينظر إلينا وهو أكرم الأكرمين، إذ الباري تعالى عند الشدائد لا تُحصى أَلْطَافُه، ولا يتأخر لدى الاضطرار إسعافُه، ولا يُمنع عطاؤه وإتحافه، لكل من التجأ إليه من المخلوقين، فكم من حرجٍ دفعه عنّا بعنايته الحَفِيَّة، وكم من ضيقٍ صرفه بمحض ألطافه الخفِيّة، على الأخص إذا اتفق القوم، وحسُنت فيما بينهم النية، فحينئذ لا يُضامون، وكذلك جزاء المحسنين.

وتيقَّنُوا إخواني بأنه لا عجز بعد اتفاق، ولا ضنْك (٣٨) مع الوفاق، ولا خطر إذا اتحد الرفاق، عسى أن نكون جميعاً من المهتدين، فاتحدوا مع أبناء الوطن، وأخلصوا لله

فيما ظهر وما بطن، يقيكم الباري شر الفتن، لمحافظتكم على حقوقكم، ومدافعتكم عن بلادكم حسب الشرع المتين، فأطيعوا أمراءكم، ولا تخالفوا كبراءكم، واتركوا المنافع الشخصية وراءكم، وقوموا بعزم وحزم لحماية الوطن وصيانة الدين المبين، فالمشروطية هي أساس العمران، ونورها في الآفاق غلب بهاء القمران (٣٩)، فاجتهدوا جميعاً معاً بالاتحاد والاقتران، كي تتخلصوا من كيد الأشرار المفسدين.

فقد أخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((إِنَّ أُمَّتي لنْ تجْتمع على ضلالةٍ، فإذا رأيتُم اخْتِلافاً فعليكُم بالسَّوَادِ الأعْظمِ))انتهى.

ثم ترادفت الأخبار بما صار، من مرور جيش الحرية على القُرى والأمصار، بلا منازعة ولا معارضة، ولا ممانعة ولا مقارضة(٤٠)، بل كانوا يقابلونه بالاحترام والتعظيم، والتبجيل والتكريم، كيف لا، وهم المدافعون عن حرية الأوطان، والباذلين أرواحهم لترقي الدولة وعمران البلدان، وقطع عروق الفساد وأعصابه، ووضع الأمر في نصابه، ففي الحقيقة هذا الجيش المدافع، هو الذي أمَّن الناس في المضاجع.

هوامش الكتاب

(١) الطابور: كلمة تركية بمعنى: الصف، أو القطعة، أو الكتيبة.

(٢) آلاي: كلمة تركية بمعنى: اللواء في الجيش.

(٣) الطوبجي: كلمة تركية بمعنى المدفعي.

(٤) الرَّغام: التراب، ويقال ألقاه في الرَّغام: أذله وأهانه.

(٥) الطَّغام: أرذال الناس وأوغادهم.

(٦) العذاب الغرام: الدائم الملازم.

(٧) الذَّنوب: الدلو العظيمة.

(٨) الوِطاب: جمع الوطْب: سقاء اللبن، وهو جلد الجذع، وهو الشاب الحدث من الرجال أو الأنعام.

(٩) تشكي: خطأ صرفي، والصواب: تشكو.

(١٠) الأليلة: يقال: ليل أليل: شديد الظلمة، مؤنثها: ليلاء

(١١) أغوروا وأنجدوا: ساروا في المنخفضات والمرتفعات بمعنى اسلكوا في التعدي كل مسلك.

(١٢) كلام وكُلوم: جمع كلْم: جرح. قلوب كِلام: مجروحة.

(١٣) اجترحوا: السيئات: اكتسبوها.

(١٤) القتام: الغبرة الضاربة إلى السواد والحمرة.

(١٥) الصَّغار: الذل

(١٦) الإحن: جمع الإحْنة: الحقد والضِّغن.

(١٧) بضاعة مُزجاة: رديئة مردودة.

(١٨) المشروطية:أي: تنفيذ الشروط التي تعهدت الحكومة بها أثناء تشكلها، من إحقاق الحق، ونشر العدل...

(١٩) المثلوث: المفتول كالحبل.

(٢٠) استدفّ الأمر: استتب، وتهيأ وأمكن.

(٢١) بتكوا: قطعوا.

(٢٢) الغثرة: الجماعة المختلطة من غوغاء الناس.

(٢٣) الطبنجة: نوع من المسدسات، بالتركية.

(٢٤) اللوزر و الموزر: نوع من الأسلحة الأوربية.

(٢٥) الأساورة: الأصل أساورة الفرس: قادتها، وكانوا رماة الحدق

(٢٦) الهنات: الشرور والفساد.

(٢٧) المِدْره: السيد الشريف، وزعيم القوم، وخطيبهم المتكلم.

(٢٨) المِصْقَع: البليغ يتفنّن في مذاهب القول.

(٢٩) العِثار: الشر.

(٣٠) الأصر: الحبس والمعاقبة،والأخذ على اليد

(٣١) الإصر: العهد المؤكد. الأليَّة: اليمين.

(٣٢) الباقعة: الداهية.

(٣٣) بقل وجه النهار، أي: ظهر.

(٣٤) مائن: كاذب، غير صادق الود.

(٣٥) الخميس: الجيش الجرار، سمي بذلك لأنه خمس فِرق: المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة.

(٣٦) القِرى: تزويد الجيش بالطعام. والأصل: القِرى: طعام الضيافة.

(٣٧) الطِّلبة: المطلوب.

(٣٨) الضَّنْك: الضيق من كل شيء.

(٣٩) القمران: الشمس والقمر. خطأ نحوي، تعمده الكاتب ليستقيم له السجع. والصواب: القمرين.

(٤٠) المقارضة: من قارضة: جازاه خيراً أو شراً، وهو في الشر أغلب.